تفسير سورةُ الأنْبياءِ
من آية (30) إلى آية (40)
اللقاء الثالث

المعنى الإجمالي:

يقولُ الله تعالى: وكثيرٌ من القرَى كان أهلُها ظالِمينَ لكُفرِهم باللهِ وبما جاءَتْهم به رسُلُهم، فأهلَكْناهم، وأوجَدْنا بَعدَهم قومًا آخرينَ سِواهم، فلمَّا رأى هؤلاء الظَّالِمونَ عَذابَنا نازِلًا بهم، وشاهَدوا بوادِرَه؛ إذا هم يُسرِعونَ هاربينَ مِن قَريتِهم. فنُودوا في هذه الحالِ: لا تَهرَبوا وارجِعوا إلى النِّعَمِ التي كُنتم فيها ومَساكِنِكم المشيَّدةِ؛ لعلَّكم تُسأَلونَ. فقالوا مُعتَرِفين بجُرمِهم: يا وَيْلَنا! إنَّا ظَلَمْنا أنفُسَنا بكُفرِنا بالله، وتَكذيبِنا رُسُلَه.

فما زالت تلك المقالةُ -وهي الدُّعاءُ على أنفُسِهم بالويلِ والهلاكِ، والاعترافُ بالظُّلمِ- دَعوَاهُم يرَدِّدونَها حين نزلَ بهم العذابُ، حتى جَعَلْناهم موتى كالزَّرعِ المحصودِ، خامِدينَ لا حياةَ فيهم؛ فاحذَروا -أيُّها المخاطَبونَ- أن تستَمِرُّوا على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحِلَّ بكم ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَكم!

ثمَّ ذكَر الله سبحانَه ما يدُلُّ على قدرتِه ووحدانيَّتِه، فقال: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهما عَبَثًا وباطِلًا، بل لإقامةِ الحُجَّةِ عليكم، ولِتَعتَبِروا بذلك كُلِّه، فتَعلَموا أنَّ الذي خلَقَ ذلك لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له.

لو أرَدْنا -على سبيلِ الفرضِ المحالِ- أن نتَّخِذَ زوجةً وولدًا، لاتَّخَذْناه مِن عِندِنا لا مِن عِندِكم، إنْ كُنَّا فاعلينَ ذلك، ولكِنْ لا يليقُ بنا فِعلُه ولا ينبغي.

بل نُلقي بحُجَجِ القرآنِ على الباطِلِ، فيَدحَضُه فإذا هو ذاهِبٌ مُضمَحِلٌّ. ولكم العذابُ والهَلاكُ -أيُّها المشرِكونَ- بسببِ كذبِكم وافترائِكم على الله تعالى.

يَقولُ الله تعالى: ولله سُبحانَه مُلكُ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ. والذين عندَه من الملائكةِ لا يتكَبَّرونَ عن عِبادتِه ولا يَنقَطِعونَ عنها، يذكُرونَ اللهَ ويُنَزِّهونَه دائمًا، لا يَضْعُفونَ ولا يَسأَمونَ.

ثمَّ ذكَر الله تعالى الأدلةَ على وحدانيَّتِه، واستحالةِ أن يكونَ له شركاءُ في ألوهيتِه، فقال: أتَّخَذَ هؤلاء المشركونَ آلهةً مِن الأرضِ يُحيون الموتَى؟ كلا، لا يَقْدِرون على ذلك، فكيفَ عبَدوهم معَ اللهِ؟! لو كان في السَّمَواتِ والأرضِ آلهةٌ غيرُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، لاختلَّ نظامُهما. فتنزَّه اللهُ رَبُّ العَرشِ، وتقدَّس عَمَّا يَصِفُه الجاحِدونَ الكافِرونَ، من الكَذِبِ والافتراءِ.

✉لا يُسألُ عن قَضائِه في خَلقِه، ولا أحدَ يَقدِرُ أن يُمانِعَه أو يُعارِضَه سُبحانَه، وجميعُ خَلقِه يُسأَلونَ عن أفعالِهم وأقوالِهم.

✉يقولُ الله تعالى: أمِ اتَّخَذ هؤلاء المشرِكونَ مِن دون اللهِ آلِهةً؟ قل -يا مُحَمَّدُ- لهم: هاتوا ما لديكم مِنَ البُرهانِ على صِحَّةِ ما تَزعُمونَهم آلِهةً؛ فليس في القرآنِ الذي جئتُ به ولا في الكُتُبِ السَّابِقةِ دَليلٌ على ما ذهَبتُم إليه، بل أكثَرُ هؤلاء المشرِكينَ لا يَعلَمونَ الحَقَّ الذي أنزَلَه الله، فهم مُعرِضونَ عنه مُنكِرونَ له.

وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- مِن رَسولٍ إلَّا نوحي إليه أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، فأخْلِصوا العبادةَ له وحْدَه.

✉وقال المشرِكونَ: اتَّخَذَ الرَّحمنُ الملائِكةَ بناتٍ له! تنزَّه اللهُ عن ذلك؛ فالملائِكةُ عبادُ اللهِ مُقَرَّبونَ عندَه، لا يتكَلَّمونَ إلَّا بما يأمُرُهم الله بقولِه، ويَعمَلونَ بما يأمرُهم به، ويُطيعونَه ولا يُخالِفونَه، وما مِن قولٍ أو فعلٍ لاحِقٍ أو سابِقٍ من أعمالِ الملائكةِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويُحصيه عليهم، ولا يتقَدَّمونَ بالشَّفاعةِ إلَّا لِمَن ارتضى اللهُ شفاعَتَهم له، وهم مِن خَوفِ اللهِ حَذِرونَ مِن مُخالفةِ أمْرِه ونَهْيِه. ومَن يدَّعِ مِن الملائِكةِ -على سبيلِ الفَرضِ- أنَّه إلهٌ مِن دونِ اللهِ، فجَزاؤه جهنَّمُ، مِثلَ ذلك الجزاءِ نجزي كُلَّ ظالِمٍ مُشرِكٍ.

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿30﴾

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا) أي: أولَمْ يَنظُرِ الكُفَّارُ فيَعلَموا أنَّ السَّماءَ كانت مُصْمَتةً لا تُمطِرُ، والأرضَ كانت مُصمَتةً لا تُنبِتُ، فصَدَعْنا السَّماءَ فأمطَرَت، وشقَقْنا الأرضَ فأنبَتَتْ. موسوعة التفسير

❍رَتْقًا: أي: مُصْمَتتَيْنِ، أو: مُنسَدَّتَينِ مُلتَئِمَتَينِ، والرتقُ: الضَّمُّ والالتِحامُ.

❍فَفَتَقْنَاهُمَا: أي: صَدَعْناهما، وفَرَجْناهما، والفَتقُ: الفَصلُ بين المتَّصِلَينِ، وهو ضِدُّ الرَّتقِ، وأصلُ (فتق): يدُلُّ على فَتحٍ في شَيءٍ.

✉استفهامُ تَوبيخٍ لمن ادَّعَى معَ اللهِ آلِهةً، ودَلالةٌ على تَنزيهِه عنِ الشَّريكِ، وتَوكيدٌ لِما تقدَّمَ مِن أدلَّةِ التَّوحيدِ، ورَدٌّ على عَبدةِ الأوثانِ. أو همزةُ الاستفهامِ للإنكارِ على إهمالِهم للنَّظرِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا

كما قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا) [عبس: 24 - 27].

وقال سُبحانَه: (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) [الطارق: 11، 12].

(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) أي: وخَلَقْنا من الماءِ كُلَّ شَيءٍ فيه حياةٌ. موسوعة التفسير

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: "قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي إذا رأيتُك طابَتْ نَفسي، وقرَّتْ عيني، فأنبِئْني عن كُلِّ شَيءٍ، فقال: كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ" أخرجه أحمد

قال ابن رجب: في قَولُه تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ وكذلك قَولُه: وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ دلَّ على خَلقِ جَميعِ ما فيه حياةٌ وما يَدِبُّ مِن ماءٍ، وأنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المطلَقُ، ولا ينافي هذا قَولُه تعالى: وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [الحجر: 27]، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نورٍ)) أخرجه مسلم ؛ فإنَّ حَديثَ أبي هريرةَ ((كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ)) دَلَّ على أنَّ أصلَ النُّورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ التُّرابِ الذي خُلِقَ منه آدَمُ الماءُ؛ فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو التُّرابُ خُلِقَ مِن الماءِ، كما جاء عن ابنِ عَبَّاسٍ وغَيرِه.

قال ابن عاشور: في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) فيه عِبرةٌ للنَّاسِ في أكثَرِ أحوالِه، وهو عِبرةٌ للمُتأمِّلينَ في دقائِقِه في تكوينِ الحيوانِ مِن الرُّطوباتِ، وهي تكوينُ التَّناسُلِ، وتكوينُ جَميعِ الحَيوانِ؛ فإنَّه لا يتكَوَّنُ إلَّا مِن الرُّطوبةِ، ولا يعيشُ إلَّا مُلابِسًا لها، فإذا انعَدَمت منه الرُّطوبةُ فقَدَ الحياةَ؛ ولذلك كان استِمرارُ الحُمَّى مُفضِيًا إلى الهُزالِ ثمَّ إلى الموتِ.

(أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) أي: أفلا يُؤمِنُ الذين كفَروا بما يُشاهِدونَه، فيَستَدِلُّوا به على وُجودِ الصَّانِعِ الفاعِلِ، المختارِ القادِرِ، ويُقِرُّوا باستحقاقِه وَحْدَه للعبادةِ، ولا يُشرِكوا به شَيئًا. موسوعة التفسير

استفهامُ إنكارٍ لعدَمِ إيمانِهم باللهِ وحْدَه، وفيه معنى التَّعجُّبِ مِن ضَعْفِ عُقولِهم. موسوعة التفسير

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿31﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال ابن حيان أنَّه بعدَ أن ذكَرَ اللهُ تعالى دليلَينِ مِن دلائِلِ التَّوحيدِ، وهي مِنَ الأدِلَّةِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ؛ ذكَرَ هنا دليلًا آخَرَ مِن الدَّلائِلِ الأرضيَّةِ، فقال

(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ) أي: وجعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثابِتةً؛ لئلَّا تضطَرِبَ الأرضُ بهم. موسوعة التفسير

تَميدَ: أي: تميلَ وتتحَرَّكَ.

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أولَمْ يَرَ هؤلاء الكفَّارُ أيضًا مِن حُجَجِنا عليهم وعلى جميعِ خَلْقِنا: أنَّا جعَلْنا في الأرضِ جِبالًا راسيةً؟).

كما قال تعالى: (أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ) [النمل: 61].

وقال سُبحانَه: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ) [المرسلات: 27].

(وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) أي: وجعَلْنا فيها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً؛ لِيَهتَدوا إلى السَّيرِ في الأرضِ، والوصولِ إلى مطالِبِهم مِن البلدانِ، ولِيَهتَدوا إلى ما فيها مِن دلائِلِ وحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرَتِه، وتفرُّدِه بأوصافِ الكَمالِ. موسوعة التفسير

(وَجَعَلْنَا فِيهَا) قال الطبري: الضَّميرُ في فِيهَا يعودُ على الأرضِ، فيدخُلُ فيها الجِبالُ وغَيرُها.

قال الماوردي: (لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ فيه وجهان: أحدُهما: سُبُلُ الاعتبارِ؛ لِيَهتَدوا بالاعتبارِ بها إلى دينِهم. الثاني: مَسالِك لِيَهتَدوا بها إلى طُرُقِ بلادِهم)

كما قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) [الزخرف: 10].

وقال عزَّ وجلَّ: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا) [نوح: 19، 20].

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ﴿32﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال البقاعي: لَمَّا دَلَّهم اللهُ تعالى بالسَّمَواتِ والأرضِ على عَظَمتِه، ثم فصَّلَ بَعضَ ما في الأرضِ لِمُلابستِهم له، وخَصَّ الجبالَ؛ لِكَثرتِها في بلادِهم- أتبَعَه السَّماءَ

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) أي: وجعَلْنا السَّماءَ سَقفًا للأرضِ مَحفوظًا من السُّقوطِ عليهم، ومحفوظًا من الشَّياطينِ. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: (والحفظُ هنا عامٌّ في الحفظِ مِن الشياطينِ ومِن الرمي وغيرِ ذلك مِن الآفاتِ).

(وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ) أي: وهم عن آياتِ السَّماءِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ وكَمالِ قُدرَتِه وحِكمَتِه وصِفاتِه، واستِحقاقِه للعبادةِ وَحْدَه- مُعرِضُون عن التفكُّرِ والتدبُّرِ فيها. موسوعة التفسير

كما قال سُبحانَه: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) [يوسف: 105].

يقول الإمام ابن القيم حين يصف التفكُّر وعظيم شرفه: "تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة؛ فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره إلى المحاب، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة..." (مفتاح دار السعادة)

وليس المقصود من تدبُّر آيات الكون الوقوف عند ظواهرها فقط، بل إدراك تلك الحقائق الضخمة التي تقف وراء هذا الكون العظيم، والتي تُحدِث تلك النقلة الاعتبارية المقصودة من التفكُّر عند أولي الألباب، وتتحول بهم من الوقوف على عَظَمَة الخَلْق إلى عَظَمَة الخالق؛ فيلقي في النفس التعظيم لهذا الخالق المبدع وتلهج الألسنة بذكر ربها:(رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)[آل عمران:191].

التعرُّف على الله: هو المقصود الأسمى والمطلوب الأهم من عبادة التفكُّر، وهو الغاية الجامعة لما سواها من غايات التفكُّر، وما سلك العابدون طريقًا إلى ربهم أسرع ولا أرحب من التفكُّر.

وما بثه الله سبحانه في جميع كونه وخَلْقه من عظيم آيات، وما وضع فيها من جميل صُنْعه وحُسْن تصريفه الذي تفرَّد به، تنطق بأن للكون ربًّا مدبِّرًا وتشهد أنه إله عظيم؛ فيخشع القلب لقدرته، ويَذْهل العقل لعظيم تقديره. إن تعويد القلب على التفكُّر في كون الله عز وجل وما بثه فيه من آيات، والنظرِ بعين القلب لآثار أسماء الله وصفاته وحكمة أفعاله وواسع قدرته، يستنبت في القلب معاني التوحيد، ويستفيد منه العبد معرفة الرب وجلال عظمته.

إن استدامة التفكُّر الذي يجمع بين وعي العقل وحضور القلب تصل بصاحبها إلى حُسْن الفهم عن الله، المورِّث للعلم الحقيقي الذي هو قناعة العقل واطمئنان القلب وانقياد الجوارح.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿33﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا قال اللهُ سُبحانَه: وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ، فصَّل تلك الآياتِ هاهنا، فقال:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي خلَقَ اللَّيلَ والنَّهارَ والشَّمسَ والقَمَرَ، وفيها دَلالاتٌ على عَظيمِ سُلطانِه، وأنَّ العبادةَ له دونَ كُلِّ ما سواه، ولِينتَفِعَ النَّاسُ بها في شُؤونِ دينِهم ودُنياهم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [الأنعام: 96].

وقال سُبحانَه: (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) [النحل: 12].

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أي: كلٌّ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ في فلَكٍ دائرٍ، يجْرونَ بسُرعةٍ كالسَّابِحِ في الماءِ. موسوعة التفسير

الفَلَكُ: مَدارُ النُّجومِ الذي يضُمُّها، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ.

قال ابن تيميَّة: الأفلاكُ مُستديرةٌ، كما أخبَرَ اللهُ ورَسولُه، وكما ذَكَرَ ذلك علماءُ المسلِمينَ وغَيرُهم.

كما قال تعالى: (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: 37 - 40].

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿34﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها: قال الرازي: لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بستَّةِ أنواعٍ مِن الدلائلِ التي تُعَدُّ مِن أصولِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ؛ أتبَعها بما نبَّه به على أنَّ هذه الدُّنيا جعَلَها كذلك، لا لتبقَى وتدومَ، أو يبقَى فيها مَن خُلِقَت الدُّنيا له، بل خلَقَها سُبحانه وتعالى للابتلاءِ والامتحانِ، ولكي يُتوصَّلَ بها إلى الآخرةِ التي هي دارُ الخُلودِ.

وهذه الأنواعُ الستةُ مِن الدلائلِ هي: النوعُ الأولُ: قولُه: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا. النَّوعُ الثَّاني: قولُه تعالى: وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ. النَّوعُ الثَّالثُ: قولُه تعالى: وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ. النَّوعُ الرَّابعُ: قولُه تعالى: وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. النَّوعُ الخامسُ: قولُه تعالى: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. النَّوعُ السَّادسُ: قولُه تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

قال المراغي: فبعدَ أن ذكَر سبحانَه الأدلةَ على وجودِ الخالقِ الواحدِ القادرِ، بما يَرَوْن مِن الآياتِ الكونيةِ- أردَفَ ذلك ببيانِ أنَّ هذه الدُّنيا ما خُلِقت للخلودِ والدوامِ، ولا خُلِق مَن فيها للبقاءِ، بل خُلِقت للابتلاءِ والامتحانِ، ولتكونَ وسيلةً إلى الآخرةِ التي هي دارُ الخلودِ، فلا تَشْمَتوا إذا ماتَ محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما هذا بسبيلِه وحْدَه، بل هذا سُنَّةُ اللهِ في الخَلْقِ أجمعينَ

(وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ) أي: وما خلَّدْنا -يا محمَّدُ- أحدًا مِن البَشَرِ قَبْلَك في الدُّنيا؛ فنُخَلِّدَك فيها، ولا بُدَّ لك مِن أن تموتَ فيها كما مات مَن قَبْلَك. موسوعة التفسير

قال القرطبي: (قوله تعالى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أي: دوامَ البَقاءِ في الدُّنيا، نزَلت حينَ قالوا: نتربَّصُ بمحمَّدٍ رَيْبَ المَنُونِ. وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَدفَعونَ نبُوَّتَه، ويقولون: شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، ولعلَّه يموتُ كما مات شاعرُ بني فلانٍ، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياءُ مِن قَبلِك، وتولَّى اللهُ دينَه بالنصرِ والحِياطةِ، فهكذا نحفَظُ دينَك وشَرْعَك).

كما قال تعالى: (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) [الزمر: 30].

(أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) أي: فهل إذا متَّ -يا محمَّدُ- سيُخَلَّدُ المشرِكونَ في الدُّنيا مِن بَعدِك؟! كلَّا، بل سيموتونَ. موسوعة التفسير

استفهامٌ إنكاريٌّ كأنَّه قيل: أفإنْ مِتَّ فهم الخالِدونَ حتَّى يَشْمتوا بمَوتِك.

قال ابن عثيمين رحمه الله: ممَّا يُعينُ على الزُّهدِ أن يتأمَّلَ الإنسانُ في هذه الحياةِ الدُّنيا، وأنَّها دارُ ممَرٍّ، وليست دارَ مَقَرٍّ، وأنَّها لم تَبْقَ لأحدٍ مِن قَبْلِك، وما لم يَبقَ لأحدٍ مِن قبلِك لن يبقَى لك؛ قال الله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ) يعني: لن يُخَلَّدَ أحدٌ في هذه الدُّنيا، وكذلك يعلَمُ أنَّ هذه الدنيا دارُ تَنغيصٍ وكَدَرٍ، فما سُرَّ بها الإنسانُ يومًا إلَّا ساءَه الأمرُ في اليومِ الثَّاني، فإذا عَلِمَ حَقيقةَ الدُّنيا فإنَّه بعَقلِه وإيمانِه سوف يزهَدُ بها، ولا يُؤْثِرُها على الآخرةِ؛ قال الله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)[الأعلى: 16- 19].

قال ابن عاشور: في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ الذين لم يُقَدِّرِ اللهُ لهم الإسلامَ مِمَّن قالوا ذلك القَولَ، سيَموتونَ قَبلَ مَوتِ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فلا يَشمَتونَ به؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَمُتْ حتى أهلَكَ اللهُ رُؤوسَ الذين عانَدوه، وهدَى بقِيَّتَهم إلى الإسلامِ.

قال ابن عثيمين: قَولُ القائلِ: «أدامَ اللهُ أيَّامَك» هو مِن الاعتداءِ في الدُّعاءِ؛ لأنَّ دوامَ الأيَّامِ مُحالٌ، مُنافٍ لِقَولِ الله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ، وقَولِه: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن: 26- 27].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿35﴾

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) أي: كلُّ نَفسٍ مخلوقةٍ لا بدَّ أن تذوقَ ألَمَ مُفارَقةِ جَسَدِها. موسوعة التفسير

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) أي: ونختبِرُكم -أيُّها النَّاسُ- بالمصائِبِ والشِّدَّةِ تارةً، وبالرَّخاءِ والنِّعَمِ تارةً أخرى؛ فِتنةً لكم لِنَنظرَ صَبْرَكم وشُكرَكم. موسوعة التفسير

قال ابن عثيمين: ذَائِقَةُ؛ لأنَّ الموتَ له مَذاقٌ مُرٌّ يكرَهُه كلُّ إنسانٍ.

كما قال تعالى: (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) [الأعراف: 168].

قال الله تعالى: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) الابتِلاءُ لا يتحقَّقُ إلَّا معَ التَّكليفِ؛ فالآيةُ دالَّةٌ على حُصولِ التَّكليفِ، وتدُلُّ على أنَّه سُبحانَه وتعالى لم يقتَصِرْ بالمكَلَّفِ على ما أمَرَ ونَهَى، وإن كان فيه صعوبةٌ، بل ابتلاه بأمرينِ: أحدُهما: ما سمَّاه خَيرًا، وهو نِعَمُ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ واللَّذَّةِ، والسُّرورِ والتَّمكينِ مِن المراداتِ. والثَّاني: ما سمَّاه شَرًّا، وهو المضارُّ الدُّنيويَّةُ مِن الفَقرِ والآلامِ، وسائرِ الشَّدائِدِ النَّازلةِ بالمكَلَّفينَ، فبيَّنَ تعالى أنَّ العَبدَ معَ التَّكليفِ يتَرَدَّدُ بينَ هاتينِ الحالَتينِ؛ لكي يَشكُرَ على المِنَحِ، ويَصبِرَ في المِحَنِ، فيَعظُمَ ثَوابُه إذا قام بما يَلزَمُ.

أصلُ الفِتنةِ: الابتِلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، ويكونُ تارةً بما يسوءُ، وتارةً بما يَسُرُّ.

قال أبو السعود: فيه إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن هذه الحياةِ الدُّنيا الابتلاءُ، والتَّعريضُ للثَّوابِ والعِقابِ.

قال ابن القيم: اللهُ سُبحانه وتعالى كما هو خالِقُ الخَلقِ؛ فهو خالِقُ ما به غِناهم وفَقْرُهم، فخلَقَ الغِنى والفَقرَ لِيَبتليَ بهما عبادَه أيُّهم أحسَنُ عَمَلًا، وجعَلَهما سَبَبًا للطَّاعةِ والمعصيةِ، والثوابِ والعِقابِ؛ قال تعالى: وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ، فأخبَرَ سبحانَه أنَّ الغِنَى والفقرَ مَطِيَّتا الابتلاءِ والامتحانِ.

(وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) أي: وإلينا -أيُّها النَّاسُ- تُرَدُّونَ لا إلى غَيرِنا، فنُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: 25، 26].

ولا بُدَّ من موتٍ ولا بُدَّ من بِلَى *** ولا بُدَّ من بعثٍ ولا بُدَّ من حشرِ

وإنا لنبلَى ساعةً بعد ساعةٍ *** على قدَرٍ لله مختلِفٍ يجري

ونأملُ أن نبقَى طويلاً كأننا *** على ثقةٍ بالأمن من غِيَرِ الدهر

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، لا محيدَ عنه، ولا مفرَّ منه، الآجالُ قاضية، والآمال فانية:(فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) [الأعراف: 34].

العيشُ منقطعٌ، والعُمر مُنتقصٌ والعبدُ مُختلَسٌ، والموتُ في الأثر

نموتُ جميعًا كلُّنا غيرَ ما شكٍّ ولا أحدٌ يبقَى سِوى مالِكِ الملكِ

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [القصص: 88]، (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ) [الرحمن: 26، 27].

كان النبيُّ ولم يخلُد لأمَّته لو خلَّد اللهُ خلقًا قبلَه خلَدَا

للموت فينا سِهامٌ غيرُ خاطِئةٍ من فاتَه اليوم سهمٌ لم يفُتْه غدًا

فتذكَّروا الموتَ تذكُّرًا يحمِلُكم على أداء الفرائض وفعل الطاعات، وترك المعاصِي والمناهِي والمحرَّمات والمنكرات، وأقلِعوا عن الذنوب والأوزار، وحاذِروا السقوطَ في ورطة الإصرار.

اليوم تفعلُ ما تشاءُ وتشتهِي وغدًا تموتُ وتُرفعُ الأقلامُ

قال -ﷺ-: "لا تزولُ قدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتَّى يسألَ عن عمرِهِ فيما أفناهُ، وعن عِلمِهِ فيمَ فعلَ، وعن مالِهِ من أينَ اكتسبَهُ وفيمَ أنفقَهُ، وعن جسمِهِ فيمَ أبلاهُ "صحيح الترمذي.

إننا في دارٍ قليلٍ بقاؤُها، وشيكٍ فناؤُها، سريعٍ انقضاؤُها، فلنحذر من ضياعَ العُمر بين العجز والكسَل، وتصرُّم الساعات بين الرَّكضة، والغفلة، واللهو والإعراض.

أخَذَ رَسولُ اللَّهِ -ﷺ- بمَنْكِبِي، فَقَالَ: "كُنْ في الدُّنْيَا كَأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وكانَ ابنُ عُمَرَ يقولُ: إذَا أمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وإذَا أصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرِ المسَاءَ، وخُذْ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، ومِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ" صحيح البخاري.

دخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذر، أين متاعكم؟ قال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا، قال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت هاهنا، قال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

قال الله تعالى:(إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخرةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ) [غافر: 39]

وقال عمر بن عبد العزيز: " إن الدنيا ليست بدار قراركم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظعن، فأحسنوا – رحمكم الله – منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

لا تغفل فإنك لم تخلق سدى، وإذا رأيت الناس قد سخّروا فِطنَتَهم للدنيا، فاستعمل فِطْنَتك في الآخرة ... تفكر في رحيلك ... واجعل همك كل همك في معادك ... تذكر أن الموت يأتي على غرة ... وأعدّ لفجأته حساباً! تفكر في لحظة احتضارك ... بم قد يختم لك ... وكيف يكون وقتها حالك! تأمل في الناس وقد تمايلت بحملك أكتافهم ... إذ حملوك ... فأقبروك ودفنوك وودعوك ... ولم يملك لك أحدهم نفعاً ولا ضراً... كيف ستلاقي يومها ربك؟! كيف ستدخل عالم البرزخ وحدك؟! كيف تجيب؟! وهل ستسعد وقتها أم تخيب؟

يا من أيقن قلبك بطول السفر، وعلمت أنك إلى الله عائد ومحتضر، لا تناقض بأعمالك يقينك، ولا تدع الغفلة تنخره وتضعفه، حتى تنسيك زادك ومعادك، فإن أقواماً أنستهم الغفلة زاد الرحيل فقال الله لهم عند القدوم عليه: (لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَومَ حَدِيدٌ) [ق: 22].

قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال: فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ، فقال الرجل: إنا لله وإنا إليه راجعون. فقال الفضيل: أتعرف تفسيره! تقول: أنا لله عبد وإليه راجع، فمن علم أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف، ومن علم أنه موقوف، فليعلم أنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول، فليُعِدّ للسؤال جواباً. فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: يسير. قال: ما هي؟ قال: تحسن فيما بقي يغفر لك ما مضى، فإنك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضى وبما بقي".

قال ابن القيم رحمه الله: " إن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك، ويقعده عن الاستدراك سنة القلب وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، فمتى انكشف عن قلبه سنة الغفلة بِزَجرَة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً: (يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللهِ) ، فاستقبل بقية عمره مستدركاً بها ما فات ، محييا بها ما أمات ، مستقبلاً بها ما تقدم له من العثرات ".

﴿وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿36﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:قال ابن حيان: لَمَّا كان الكُفَّارُ يَغُمُّهم ذِكرُ آلهتِهم بسُوءٍ؛ شَرَعوا في الاستهزاءِ، وتَنقيصِ مَن يَذْكُرُهم على سبيلِ المقابَلةِ

(وَإِذَا رَآَكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قُرَيشٍ، يَستَهزِئونَ ويَستَخِفُّونَ بك. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا [الفرقان: 41].

(أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آَلِهَتَكُمْ) أي: يقولونَ إذا رأَوُا الرَّسولَ -استِنكارًا-: أهذا هو الذي يَعيبُ أصنامَكم التي تَعبُدونَها. موسوعة التفسير

(وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ) أي: وهؤلاء المستَهزِئونَ بالرَّسولِ يَكفُرونَ بذِكرِ الرَّحمنِ الذي يُنعِمُ عليهم. موسوعة التفسير

قال الشِّنقيطي: (قال بعضُ أهلِ العِلمِ: معنى كُفرِهم بذِكرِ الرَّحمنِ: هو الموضَّحُ في قَولِه تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا [الفرقان: 60]، وقولِهم: ما نَعرِفُ الرَّحمنَ إلَّا رحمنَ اليمامةِ، يعنون مسيلِمةَ الكَذَّابَ. وقد بيَّن ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُه أنَّ إنكارَهم لمعرفتِهم الرَّحمنَ تجاهُلٌ منهم ومُعاندةٌ، مع أنَّهم يعرفونَ أنَّ الرَّحمنَ مِن أسماءِ الله تعالى. قال: وقال بعض

شعراء الجاهليَّةِ الجهلاء: ألَا ضربَت تلك الفتاةُ هجينَها ... ألا قطَعَ الرَّحمنُ رَبِّي يَمينَها). ((أضواء البيان))

قال السعدي: في ذِكرِ اسمِه (الرَّحمنِ) هنا بيانٌ لِقَباحةِ حالِ الكافرينَ، وأنَّهم كيف قابَلوا الرَّحمنَ مُسدِيَ النِّعَمِ كُلِّها، ودافِعَ النِّقَمِ، الذي ما بالعبادِ مِن نِعمةٍ إلَّا منه، ولا يَدفَعُ السُّوءَ إلَّا هو- بالكُفرِ والشِّركِ.

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ﴿37﴾

قال ابن حيان: لَمَّا كان الكافِرونَ يَستَعجِلونَ عَذابَ اللهِ وآياتِه المُلجِئةَ إلى الإقرارِ والعِلمِ، نَهاهم تعالى عن الاستِعجالِ

قال ابن كثير: وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المستَهزِئينَ بالرَّسولِ صلواتُ الله وسلامُه عليه، وقَع في النُّفوسِ سُرعةُ الانتِقامِ منهم واستعجَلَت، فقال الله تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ؛ لأنَّه تعالى يُملي للظَّالِمِ حتى إذا أخذَه لم يُفلِتْه، يُؤَجِّلُ ثمَّ يُعَجِّلُ، ويُنظِرُ ثمَّ لا يُؤَخِّرُ؛ ولهذا قال: سَأُرِيكُمْ آيَاتِي أي: نَقْمي وحُكمي واقتِداري على مَن عَصاني، فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ) أي: طُبِع الإنسانُ ورُكِّبَ على العَجَلةِ. موسوعة التفسير

قال الشوكاني: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ أي: جُعِل لِفَرطِ استِعجالِه كأنَّه مخلوقٌ مِن العَجَلِ.

قال ابن عثيمين: إذا كان في المخلوقِ خُلُقٌ كبيرٌ مِن شَيءٍ مُعَيَّنٍ نُسِبَ إليه؛ لهذا قال تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ مع أنَّه خُلِقَ مِن تُرابٍ، لكِنْ لَمَّا كانت طبيعتُه العَجَلةَ، صار كأنَّه ناشئٌ منها، كأنَّها عُنصرُ وُجودِه.

كما قال تعالى: وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا [الإسراء: 11].

قال الشِّنقيطي: لا إشكالَ في قَولِه تعالى: خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ مع قَولِه تعالى: فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ، فلا يُقالُ: كيف يقولُ: إنَّ الإنسانَ خُلِق من العَجَلِ، وجُبِلَ عليه، ثمَّ ينهاه عمَّا خُلِقَ منه وجُبِلَ عليه؛ لأنَّه تكليفٌ بمُحالٍ؟! لأنَّا نقولُ: نعم، هو جُبِل على العَجَلِ، ولكِنْ في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالتَّأنِّي، كما أنَّه جُبِل على حُبِّ الشَّهواتِ مع أنَّه في استطاعتِه أن يُلزِمَ نَفسَه بالكَفِّ عنها، كما قال تعالى: وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [النازعات:40، 41].

قال الرازي: وكأنَّه سبحانه نبَّه بهذا على أنَّ تركَ الاستعجالِ حالةٌ شريفةٌ عاليةٌ مرغوبٌ فيها؛ لأنَّ العائقَ كلَّما كان أشدَّ، كانت القدرةُ على مخالفتِه أكملَ.

(سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ) أي: سأُريكم -أيُّها المستَعجِلونَ رَبَّهم بالعَذابِ- آياتِ عَذابي وانتِقامي، وحُكمي وقُدرَتي على مَن كَفَرَ بي وعصاني؛ فلا تَستَعجِلوا ربَّكم بالعذابِ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ [الصافات: 176].

وقال سُبحانَه: فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ [الذاريات: 59].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿38﴾

(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) أي: ويقولُ هؤلاء المستَعجِلونَ رَبَّهم بالآياتِ والعَذابِ لمحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ به: متى يأتينا عَذابُ اللهِ إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به من العذابِ. موسوعة التفسير

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ﴿39﴾

(لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) أي: لو يتيقَّنُ الكُفَّارُ المستَعجِلونَ العَذابَ ماذا لهم من البَلاءِ حين تَلفحُ وجوهَهم النَّارُ، فلا يَستَطيعونَ في ذلك الوَقتِ أن يَكُفُّوا بأنفُسِهم النَّارَ عن وُجوهِهم ولا عن ظُهورِهم، ولا يَجِدونَ لهم ناصِرًا ينصُرُهم، ويُنجِيهم مِن عَذابِ اللهِ؛ لَما استعجَلوا العذابَ، ولَتابوا وآمَنوا باللهِ. موسوعة التفسير

وفي قولِه: عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ خَصَّ الوجوهَ والظُّهورَ بالذِّكرِ بمعنى القُدَّامِ والخَلْفِ؛ لكونِهما أشهَرَ الجوانبِ، واستلزامِ الإحاطةِ بهما الإحاطةَ بالكلِّ، بحيث لا يَقدِرون على دَفْعِها بأنفُسِهم من جانبٍ من جَوانبِهم.

كما قال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ [الأعراف: 41].

وقال سُبحانَه: سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [إبراهيم: 50].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا [الكهف: 29].

وقال تبارك وتعالى: لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ [الزمر: 16].

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿40﴾

(بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ) أي: بل تأتيهم النَّارُ فجأةً، فتصيبُهم بالذُّعْرِ والخوفِ والحيرةِ فلا يَدرونَ ما يصنعونَ. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ [الشعراء: 201-202]

قال الرازي: في قوله تعالى: بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً لم يُعلِمِ المكَلَّفينَ وقتَ الموتِ والقيامةِ؛ لِما فيه مِن المصلحةِ؛ لأنَّ المرءَ مع كِتمانِ ذلك أشَدُّ حَذرًا، وأقرَبُ إلى التَّلافي.

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ) أي: فلا يَستَطيعونَ دَفْعَ النَّارِ عن أنفُسِهم حين تبغَتُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العَذابُ لِيَتوبُوا. موسوعة التفسير

فيه تَنبيهٌ لهم إلى أنَّهم أُنْظِروا زمَنًا طويلًا لعلَّهم يُقلِعون عن ضَلالِهم

النار خلقٌ عظيم من خلق الله، وهي الدار التي أعدها الله للكافرين؛ فهي مأوى الظالمين وسجن الكافرين وعقوبة العصاة والمخالفين، وهي الخزي الأكبر والخسران المبين، (وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) [آل عمران:131]

الحديث عن النار حديث صدقٍ وحق؛ فيها جبالٌ وأوديةٌ وأنهرٌ وشعاب، فيها دركاتٌ ومنازل، وهي سوداء مظلمة قاتمةٌ معتمة، لها صوتٌ يسمع من بعيد... تشهق وتزفر تمور موراً، و (تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ الْمُكَذِّبِينَ) [المرسلات:32-33].

الحزن فيها دائمٌ وطويل، وللناس فيها صياحٌ وضوضاء وعويل.. قلوب أهلها ملئت قنوطًا ويأساً، ولا تزيدهم الأيام فيها إلا شدةً وبؤساً، فيها من العذاب والآلام ما تعجز عن وصفه الألسن والأقلام، وفيها من الأهوال والأحزان ما تتقاصر دون تصوره الأذهان: (إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)[الفرقان:66].

وفي الصحيحين: أن النبي -ﷺ- قال: "اشْتَكَتِ النَّارُ إلى رَبِّهَا فَقالَتْ: رَبِّ أكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فأذِنَ لَهَا بنَفَسَيْنِ: نَفَسٍ في الشِّتَاءِ ونَفَسٍ في الصَّيْفِ، فأشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الحَرِّ، وأَشَدُّ ما تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهَرِيرِ "صحيح البخاري.

عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: "يُؤْتَى بجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعُونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبْعُونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا "(رواه مسلم).

لها صوتٌ رهيب وتحطمٌ ووجيج، قال تعالى: (إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا)[الفرقان:12]، وقال تعالى: (تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ)[الملك:8].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- قال: " نَارُكُمْ جُزْءٌ مِن سَبْعِينَ جُزْءًا مِن نَارِ جَهَنَّمَ، قيلَ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قالَ: فُضِّلَتْ عليهنَّ بتِسْعَةٍ وسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا. "(رواه البخاري ومسلم).

عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: " يُؤْتَى بأَنْعَمِ أهْلِ الدُّنْيا مِن أهْلِ النَّارِ يَومَ القِيامَةِ، فيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقالُ: يا ابْنَ آدَمَ هلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هلْ مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيَقولُ: لا، واللَّهِ يا رَبِّ "(رواه مسلم).

إنها غمسةٌ واحدةٌ وينسى الإنسان كل نعيم الدنيا ولذائذها وشهواتها: (يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى)[المعارج:11-17].

وإذا طال البلاء على أهل النار وبلغ منهم العذاب كل مبلغ وكثرت حسراتهم وندامتهم طلبوا الخروج والمثاب:(وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)[فاطر:37] ويعترفون بذنوبهم: (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ)[المؤمنون:106-107]؛فيجابون بعد زمان: (قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا

تُكَلِّمُونِ)[المؤمنون:108]، ثم يطلبون من خازن النار أن يشفع عند الله ليهلكهم وليميتهم حتى يتخلصوا من العذاب: (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ)[الزخرف:77]... إنه الرفض لكل ما يطلبون.. ويؤتى بالموت ليذبح، ويقال لأهل الجنة: "خلود فلا موت، ويقال لأهل النار: خلود فلا موت" الحديث في صحيح البخاري؛ هنالك يشتد نحيب أهل النار ويعظم حزنهم ويطول بكاؤهم...

يقول الحسن البصري -رحمه الله-: "والله ما صدق عبد بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وإن المنافق لو كانت النار خلف ظهره ما صدق بها حتى يتجهم في دركها، والله ما أُنذر العباد بشيء أدهى منها،" (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى* لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى* الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) [الليل:14-16]، وفي التنزيل العزيز: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً)[مريم:71]؛ فأين الخوف من ذلك المورد؟!إن من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، وتالله ما نجا إلا المؤمنون:(قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)[الطور:26-28]

قال تعالى: (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ)[آل عمران:185]، الإيمان والعمل الصالح هو طريق الفوز والفلاح، ووعد الله ووعد رسوله صدق؛ فلن يلج النار رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله"(رواه الترمذي وحسنه، وصححه الألباني)، وقال تعالى:(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[الرحمن:46].

فعلينا بالدعاء والاستعاذة بالله ومن استعاذ بالله أعاذه، عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: " ما سأل رجلٌ مسلمٌ اللهَ الجنةَ ثلاثًا، إلَّا قالتِ الجنةُ: اللهم أدخلْهُ الجنةَ، ولا استجارَ رجلٌ مسلِمٌ اللهَ منَ النارِ ثلاثًا، إلَّا قالتِ النارُ: اللهمَّ أجرْهُ منِّي "(صحيح الجامع)

اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال اللهم إنا نسألك بأنا نشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك نسألك اللهم أن تدخلنا الجنة وأن تجيرنا من عذاب النار، اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار. اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار. اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.